

النظام العسكري للجزائر في العهد العثماني

**الدكتور عقيل نمير
كلية الآداب- قسم التاريخ
جامعة دمشق**

النظام العسكري للجزائر في العهد العثماني

الدكتور عقيل نمير

كلية الآداب - قسم التاريخ

جامعة دمشق

يشكل الجيش سندا أساسياً لأية دولة من الدول، حيث توكل إليه السلطة الحاكمة القيام بمهمتين أساسيتين: الأولى داخلية تقوم على حماية الأمن داخل البلاد. والثانية خارجية للدفاع عن البلاد ضد أي عدوان تتعرض له. واعتمدت الدولة العثمانية في الجزائر على الجيش، بعدما شكلت نواته في عام ١٥١٨م عندما أعلن خير الدين بربروس تبعية الدولة العثمانية ممثلة بالسلطان سليم الأول، الذي قام بإرسال ٢٠٠٠ جندي من الانكشارية إلى الجزائر، وسمح له بجمع عدد مماثل من المتطوعين، حتى وصل عدد أفراد هذا الجيش إلى ٤٠٠٠ جندي، ثم تزايد عدده عندما أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني ٤٠ سفينة تحمل ٦٠٠٠ جندي إلى حاكم الجزائر صالح ريس من أجل مساعدته في استعادة وهران و المرسى الكبير من أيادي الإسبان، ومنذ ذلك التاريخ لعبت الهجرة والتجنيد الطوعي من جميع أنحاء الإمبراطورية، وبشكل خاص الأناضول، دوراً هاماً في تزويد إيالة الجزائر بالعناصر العسكرية (١). ينقسم الجيش في الجزائر إلى قسمين رئيسيين هما: الانكشارية، و طائفة الرياس، سنتناول كل قسم على حده، ونبين التنظيم

والمراتب المتبعة فيهما، ونتائج الصراع بين هاتين الطائفتين على الأوضاع الداخلية والخارجية لإيالة الجزائر في الفترة العثمانية .

أولاً- الانكشارية (الجيش البري):

١- تمهيد:

حكمت البلاد العربية التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية من قبل طبقة كانت أغلبية أفرادها تجند خارج حدودها، وكانت هذه الطبقة تزود الدولة العثمانية بالقسم الأكبر من الموظفين السياسيين والعسكريين (٢). ولم تخرج الجزائر عن هذه القاعدة، وحكمت منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، بعد إعلان خير الدين بربروس تبعيته للدولة العثمانية، من قبل جيش أجنبي أطلق عليه أسم الأوجاق أو الجيش التركي (٣). وكان الانكشاري يجمع بين مهمتين في الوقت نفسه، مهمة إدارية مدنية ومهمة عسكرية، بالإضافة إلى قيامه بعمله الخاص، حيث كان يحق له العمل بالتجارة والصناعة وأحياناً في الزراعة (٤)، فعلى سبيل المثال كان العسكر من فئة البلوكباشي يختارون كسفراء لدى الدول الأجنبية (٥)، بمعنى آخر لعبت المؤسسة العسكرية العثمانية في الجزائر دوراً مهماً على الصعيدين الإداري والعسكري، لكن منذ عام ١٦٦٠م بدأ الباشوات المرسلون من استانبول لإدارة الجزائر يفقدون تأثيرهم الحقيقي على قرارات الجيش العثماني في الإيالة، وبدأ الباشا المنتخب من قبل الجيش يلعب الدور الأساس في إدارة الدولة عسكرياً وإدارياً (٦).

يتبين لنا من هذا التمهيد الدور الفاعل والحقيقي الذي كان يلعبه الجيش في إدارة إيالة الجزائر وتصريف أمورها الداخلية، وتوجيه سياستها الخارجية، لكن هذه الإدارة العسكرية الحديدية انعكست على الأوضاع الداخلية في البلاد، وبشكل خاص على الرعية، التي كانت مبعدة عن لعب أي دور في

إدارة الدولة، الأمر الذي دفعها إلى التمرد والعصيان، وتعدّ ثورات بلاد القبائل وثورة القولوغلية، خير مثال على ذلك .

٢- أصول الانكشارية الجزائرية:

يمكن التحقق من أصول هؤلاء العساكر بالاعتماد على السجلات العسكرية، التي كان يدون فيها اسم الشخص، ثم المدينة التي ولد فيها، وديانته وثقافته التي كانت تميزه عن سكان البلاد الأصليين (٧)، ونجد أحيانا أسماء المناطق الأصلية لهؤلاء الجند و ألقابهم مثل التركي، والعلج (معتق الإسلام)، وكانت الغالبية العظمى التي تشكل الجيش العثماني من الأتراك (٨)، بالإضافة إلى قسم آخر من البدو القاطنين في الناحية الجنوبية لإيالة الجزائر والخاضعين لسلطة الداي، أو من الذين تربطه بهم علاقات تحالف و صداقة (٩).

إلا إن الغالبية العظمى من هؤلاء الجنود كانت ترجع بأصولها إلى الأناضول، حيث كانت عمليات التجنيد تتم هناك وفق ما ورد في إحصائيات كولومب (Colomb) المتعلقة بالسجلات العسكرية للجيش العثماني (١٠)، وهناك نسبة صغيرة من هؤلاء الجنود تعود أصولها إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية مثل : ألبانيا (وبشكل خاص من مدينة باسا الواقعة في الجزء الأوربي للإمبراطورية العثمانية)، البوسنة، جزيرة قبرص، كريت وجزيرة رودوس (١١)، ولأبد من الإشارة هنا من إلى أن عدداً من العساكر الذين دخلوا حديثا في الإسلام كان لهم امتيازات الانكشارية والرياس، وقد وصل هذا العدد أحيانا إلى نصف الجيش، وبشكل خاص القوة البحرية وذلك في القرن السابع الميلادي (١٢).

٣- عمليات التجنيد:

كانت عمليات التجنيد تتم تحت إشراف بعثات جزائرية- عثمانية، كان المسؤولون عن إدارة إيالة الجزائر يبلغون استانبول في حال نقص عدد الجنود لديهم، سواء بسبب الموت أثناء المعارك التي كانوا يخوضونها مع القوى الأوروبية الكبرى آنذاك، أو في حال وقوع هؤلاء الجنود في الأسر (١٣) .

ويشير الرحالة الإنكليزي شاو (Shaw) إلى أن عمليات التجنيد كانت تتم كل خمس أو ست سنوات، وكان الجزائريون يرسلون سفنهم إلى الأناضول لجلب هؤلاء الجنود (١٤) . بينما أصبح التجنيد في القرن التاسع عشر الميلادي يتم كل سنة تقريباً نظراً لحاجة الإيالة الماسة إلى الجند (١٥) . هنا نطرح على أنفسنا السؤال التالي: لماذا كانت عمليات التجنيد تتم في الأناضول وليس في الجزائر نفسها بين السكان الأصليين ؟ ألا يدل ذلك على طابع العقليّة العثمانية القائم على التمييز، لاسيما وأن الهدف الأساسي من عمليات التجنيد هو دعم الجيش العثماني في الجزائر من أجل الدفاع عنها ومهاجمة السواحل الأوربية؟ إن استخدام هؤلاء الجنود كان يتم وفق الخطة التي يرسمها القائمون على هذه البعثات المرسلة إلى الأناضول، بخصوص المصير الذي ينتظرهم في الجزائر، والامتيازات التي سيحصلون عليها جراء مهاجمة السواحل الأوربية . على أية حال، كانت حاجة الجزائر إلى هؤلاء الجنود ذات أثر ايجابي وهام في العلاقة بين السلطنة و الإيالة، مما أدى بالأخيرة إلى عدم قطع صلاتها مع الدولة العثمانية . بالمقابل استغلت هذه الأخيرة حاجة الجزائر للجند من أجل فرض سيطرتها الفعلية على حكامها ورعيتهما، لكن صفات هؤلاء الجند الأخلاقية وترتيبهم الاجتماعي كانت غير مقبولة في الجزائر، فكتابات الرحالة الأجانب تصف هؤلاء الجنود بأنهم كانوا ينتسبون

إلى أدنى الطبقات الاجتماعية، فالألب دان (Dan) " يصفهم بالرعاة الفقراء أو بأنهم أناس منحطون... " (١٦)، أما لوجيه دى تاسي (Laugier de Tassy) فوصفهم " بأنهم أشقياء ومحكوم عليهم بالإعدام... " (١٧). وكان حكام الدولة العثمانية يدعمون عمليات التجنيد ويؤيدونها لكي يبعدوا العناصر المشاغبة والشقية إلى الجزائر. وكانت عمليات نقل المجندين تتم عن طريق السفن الجزائرية، ولم يكن هناك وقت محدد لقدم هذه السفن، بل كان يحدث صدفة في إحدى الحالات التالية :

١- عندما تقوم السفن الجزائرية بعمليات بحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

٢- أثناء إبحار السفن الجزائرية إلى المشرق لمساعدة الأسطول العثماني في معاركه ضد أعدائه.

٣- عند قيام هذه السفن بعمليات تجارية في الحوض الشرقي للمتوسط، حيث كانت تستغل هذه الفرصة في عملية نقل الجنود (١٨).

فلماذا لم تتم عملية نقل الجنود في أوقات منظمة ومحددة من قبل حكام الإيالة وحكام السلطنة؟ أليس هذا نوع من الإهمال ؟ لاسيما وان كلا الطرفين بحاجة إلى بعضهما البعض، فالجزائر بحاجة إلى هؤلاء الجنود لقمع الثورات الداخلية وتثبيت الحكم و لمهاجمة السواحل الأوربية لتحقيق الغنى والشهرة والمجد، والدولة العثمانية من جهتها كانت تحتاج إلى هذه العمليات لتحقيق هدفين، أولهما : إبعاد هذه العناصر المشاغبة عن مركز السلطة. والثاني : العمل على استمرار نفوذها وسيطرتها على إدارة الجزائر.

بقي تجنيد العناصر من الأناضول وإرسالهم إلى الجزائر كببراً طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، أي في عصر قوة السلطنة العثمانية

والإيالة الجزائرية معاً. غير أن عمليات التجنيد بدأت تضعف في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي نظراً لضعف الإيالة ونُدرة مهاجمتها للسواحل الأوربية، ففي هذه الظروف اعتمدت الجزائر على دعم الدولة العثمانية، وأرسلت بعثات عسكرية جزائرية، أو كان لها مندوبين في استانبول لتنسيق هذا الدعم (١٩) .

وهنا نرى استغلال حكام السلطنة العثمانية لهذا الوضع من أجل المحافظة على استمرار السيطرة العثمانية وتوطيد نفوذها على الإدارة الجزائرية وتنفيذ ما يطلب إليها من أوامر سلطانية . في جميع الأحوال، فقد كانت عمليات التجنيد تخدم السلطة العثمانية الحاكمة في استانبول والجزائر، ولم ينال الرعاية المحكومة من هذه العمليات سوى تحملها قساوة الجند في تعاملهم معهم، وبشكل خاص أثناء قيامهم بعملية جمع الضرائب، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى التمرد والعصيان المسلح، وأدى ذلك إلى تدهور أحوال الإيالة الاقتصادية والاجتماعية، وإلى توسيع هوة الحقد والكراهية بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكانت عمليات التجنيد مكلفة للإيالة التي كانت مجبرة لدفع الأموال اللازمة لإتمام هذه العمليات، بالإضافة للرشوة التي كانت تدفع من قبل السلطات الجزائرية للسلطة العثمانية لتسهيل هذه العمليات (٢٠) .

وفي أواخر العهد العثماني في الجزائر اضطرت الحكومة إلى مضاعفة أعداد الجند، بسبب ازدياد الهجمات الأوربية ضدها وضعف السلطنة، فاجأت إلى التجنيد المحلي من الدواير والزمول وقبائل المخزن مثل الزواوة عام ١٨١٧م في عهد الداوي علي، حيث جند حوالي ٢٠٠٠ من رجال القبائل، ونقل مقر إقامته من قصر الجنية إلى القصبة (٢١) .

٤- عدد الجيش وتنظيمه في الثكنات:

لم يكن عدد القوة العسكرية، البرية والبحرية، ثابت في إيالة الجزائر على الرغم من عمليات التجنيد المستمرة التي ذكرناها سابقاً، حيث لعبت الدولة العثمانية دوراً بارزاً في تاريخها الطويل . ويرجع ذلك إلى أن عدداً من الجنود الأتراك كانوا يتركون إيالة الجزائر نظراً لظروفهم الحياتية المعيشية الصعبة، أو بسبب الهجمات الأوربية على الجزائر، إضافة إلى موت عدد كبير منهم في ساحات المعارك، لذلك نرى أن عمليات التجنيد كانت شبه مستمرة وسنوية تقريباً . أما فيما يتعلق بعدد القوة العسكرية فإن الرحالة الأوربيين يقدمون أرقاماً متباينة فالدكتور شاو (Shaw) يقول: " بلغ عدد القوة العسكرية العاملة في الجزائر ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ألف عنصر، ويصل العدد أحياناً إلى ١٠٠ ألف، يوزعون على النحو التالي : من ١٥ إلى ١٦ ألف جندي تركي والباقي مؤلف من البدو المقيمين في القسم الجنوبي من الإيالة، والخاضعين لسلطة الداوي وكانت تربطهم به علاقات متينة... " (٢٢) . في حين يذكر لوجيه دي تاسي (Laugier de Tassy) أن عدد الجيش العثماني في الجزائر لم يتجاوز في أحسن الأحوال والظروف أكثر من ١٢ ألف مقاتل (٢٣) . يعود الفارق الكبير بين هؤلاء الرحالة إلى اختلاف المصادر التي أخذ عنها كل منهما، أو إلى محاولة شاو (Shaw) تضخيم العدد الذي ذكره لإظهار الجزائر بأنها مركز متقدم لتجميع القوة العثمانية بهدف مهاجمة السواحل الأوربية . فكل عسكري عثماني يصل إلى الجزائر عليه إن يسجل قبل كل شيء على دفاتر الجند و يتضمن تسجيله اسم والده و اسم بلده الأصلي والمهنة التي يزاولها و أحياناً كانت تسجل ألقابهم، وقد كان الجيش العثماني في الجزائر يتألف من ٤٢٤ أورطة مقسمة إلى غرف يقيم في كل غرفة بين ١١-٣٠ رجل، وكانت الاورطات موزعة على ثكنات المدينة

البالغة ثمانية (٢٤) . فالقسم الأكبر من هؤلاء الجنود المسجلين في الجزائر هم أناس غير معترف بهم، وليس لهم أي مصدر للعيش، ولهم سمعة سيئة، وهذه الصورة السيئة لدى الغالبية العظمى منهم جعلت الأهالي ينفرون منهم ويبتعدون عنهم (٢٥) .

وعلى الرغم من هذه السمعة السيئة لهؤلاء الجنود القادمين إلى الجزائر، فقد كان ينظر إليهم من قبل السلطات العثمانية الحاكمة في الجزائر، بعد تسجيلهم على دفاتر الانكشارية، على أنهم أناس شرفاء.

فلماذا جندت الدولة العثمانية وسلطتها الحاكمة في الجزائر هؤلاء الناس ذوي السمعة السيئة، بالإضافة إلى كلفتهم الباهظة ؟ هل كان ذلك من أجل الدفاع عن الجزائر وحمايتها من الغزو الأوروبي؟ أم لإبعاد هذه العناصر المشاغبة والخطيرة على مركز السلطنة في استانبول كم ذكرنا سابقا ؟ الحقيقة هي أن الدولة العثمانية كانت تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق الهدفين التاليين:

الأول - إحكام سيطرتها القوية على الإيالة، وخاصة بعد نهاية فترة حكم البربايات، وبداية مرحلة الصراع بين الانكشارية والرياس، الأمر الذي كان يهدد بخروج الجزائر من فلك السياسة العثمانية وحلبتها الاستعمارية. فالجيش المرسل إلى الجزائر كان له دورين، الأول هو دعم السلطة الحاكمة وإمدادها بالقوة اللازمة لقمع محاولات الفتنة والشغب والثورة، والثاني هو مهاجمة السواحل الأوروبية لتحقيق الغنى والشهرة.

الثاني - في الوقت الذي عجزت فيه الدولة العثمانية عن مواجهة الأخطار الأوروبية التي تعرضت لها في الحوض الشرقي للمتوسط، رأت أن تدعم قوة الجند في إيالة الجزائر، وتهاجم السواحل الأوروبية، فمن جهة تستفيد

من البحرية الجزائرية القوية في تلك الفترة، ومن جهة أخرى تحقق أهدافاً سريعة وإيجابية نظراً لقرب السواحل الأوروبية من إيالة الجزائر.

كانت الطبقة العسكرية التركية في الجزائر تتمتع بامتيازات كثيرة كونها تحتل المرتبة العليا في السلم الاجتماعي، وكانت تختار الداي والبايات من هذه الطبقة بالإضافة إلى أنها كانت معفية من الضرائب وجميع الالتزامات المالية تجاه الحكومة (٢٦). وكان عدد من هؤلاء الجنود يمارسون في حالات السلم مهناً مختلفة مثل: التجارة، بناء البيوت وشراء الأراضي والعقارات الزراعية، وخاصة في ضواحي المدن الكبيرة، وكانوا يستخدمون العبيد والفلاحين للعمل فيها. واستفادت الطبقة العسكرية من السلم والهدوء للممارسة مهنتها وأعمالها الحرة، فعلى سبيل المثال، شهد عهد الداي عثمان، الذي حكم الجزائر بين عامي ١٧٦٦-١٧٩١م، حالة من السلم والازدهار على الصعيدين الداخلي والخارجي، فانعكس ذلك على إيالة الجزائر عامة وعلى الطبقة العسكرية بشكل خاص (٢٧).

أما فيما يخص الحصون العسكرية في الجزائر، التي كانت مقرات لإقامة الجنود الأتراك، فيمكننا أن نذكر عدداً هاماً منها، وهي: حصن القصبة، برج النجمة، البرج الجديد، بطارية الباب الجديد وبطارية سيدي رمضان، وغيرها (٢٨).

كان العزب من الجنود يقيمون بتكنات خاصة بلغ عددها في مدينة الجزائر ثمانين تكنات، في حين كان المتزوجون يقيمون في بيوتهم إلا في حالات الاستنفار العام والحروب، وكان الجنود يوزعون على التكنات العسكرية حسب نظام دقيق، وفيما يلي أهم تكنات مدينة الجزائر العسكرية:

- ١- دار الانكشارية : مقسمة إلى ٢٧ غرفة تضم ٨٩٩ انكشاري موزعين على ٤٨ مجموعة (أوجاق).
- ٢- ثكنة باب عزون : مقسمة إلى ٢٨ غرفة تضم ١٦٦١ انكشاري موزعين على ٦٥ مجموعة.
- ٣- ثكنة الخراطين بناحية باب عزون : مقسمة إلى ٣٠ غرفة تضم ٢٧٨٢ انكشاري موزعين على ١١٥ مجموعة.
- ٤- ثكنة الأوسطى موسى أو ثكنة باب الجزيرة : مقسمة إلى ٣١ غرفة تضم ١٨٣٣ انكشاري موزعين على ٧٢ مجموعة.
- ٥- ثكنة باب البحر أو الأدراج : مقسمة إلى ١٥ غرفة تضم ٦٠٢ انكشاري موزعين على ٢٧ مجموعة.
- ٦- ثكنة الرحبة القديمة والجديدة : مقسمة إلى ٥٥ غرفة تضم ١٩٤٥ انكشاري موزعين على ٨٨ مجموعة.
- ٧- ثكنة العريش .
- ٨- ثكنة التماقين (٢٩) .

كان للثكنات العسكرية مظهر بناء كبير على طراز بناء الفنادق، مع فارق واحد هو أن المساحة الداخلية غير منسجمة مع مساحة الغرف، ويمكننا الدخول إلى الثكنة عبر ممر ذو عقود يوجد تحتها، بحسب العادة، سفن من ورق. إن هذا الممر يؤدي إلى ساحة داخلية محاطة بأروقة تفتح عليها أبواب غرف العساكر، وكانت الغرف مزينة بشكل جميل .

أما خارج مدينة الجزائر فإن العناصر التركية كانت موزعة على الحاميات العسكرية البالغ عددها ١٥ حامية، وموزعة على ٧١ سفرة، منها ١٠ سفرات

في مدينة وهران، و ٥ سفرات لكل مدينة من المدن التالية : قسنطينة، عنابة، بسكرة، بجاية، تلمسان، معسكر، مستغانم، تبسة، وثلاث سفرات لكل من المراكز التالية: سبابو، بوغني، سوق حمزة، سور الغزلان، القل، وزمورة (٣٠).

وكانت مخصصات الجند من الطعام داخل الثكنات قليلة جداً، يعطى لكل جندي أربع خبزات وزنها نصف رطل يومياً، مصنوعة من طحين القمح والشعير بنسبة ٢ إلى ١ (٣١) . وكان مرتب الجندي الأولي هو ٢٧٥ أسبر أي ما يعادل ٤ فرنك فرنسي و ٥٩٠٠٩ سنتيماً، ويصل المرتب الأعلى إلى ٦ بياستر أي ما يعادل ٥٩ فرنك فرنسي و ٦٠ سنتيماً وذلك لمدة شهرين (٣٢) . لكن الدفع الكبير للجنود يزداد مع فصل الربيع حيث يبدأ النشاط البحري الجزائري (القرصنة)، إذ يحصل المشاركون فيها من الجنود على نصيب من الدراهم يمكنهم من شراء سلاح أبيض أو سلاح ناري، ويتحسن مستوى غذائهم في هذا الموسم، فالجنود الذين يخدمون في البحرية يعطون بعض المواد الغذائية، مثل : البسكويت، زيت الزيتون، الزيتون، الخل و التين المجفف، أما من يبقى داخل الثكنات فغذائهم البرغل والرز ويقدم لهم اللحم والتين مرة واحدة في الأسبوع، وفي أيام الأعياد كانت الرواتب تزداد إلى الضعف (٣٣).

وكان العساكر الجدد الذين يخدمون في قصر الجنيّة و القصبة يأخذون خروفاً ونصفاً في الأسبوع، ويستفيدون من الهدايا المقدمة إلى القصر، بحيث يصبحون أحياناً أغنياء مقارنة مع رفاقهم القدامى (٣٤).

وتتم عمليات دفع الرواتب للجنود بصورة منتظمة مرة واحدة كل شهرين، وذلك بحضور الداي وأغا الجيش والأغا باشا وضباط الديون، ويتسلم كل

عسكري راتبه شخصياً في قصر الداى من قبل المحاسب الخاص بهذه العملية (٣٥). ويتلقى الجنود الأغرار (اليولداش) في الأسابيع الأولى من إقامتهم بعض القواعد الضابطة للتنظيمات العسكرية الخاصة بالإيالة (٣٦). وكان سلاح الجنود الفردي مؤلفاً بشكل رئيسي من :

بنديقية، يطقان، ومسدسين، وفي حال فقد العسكري أحد هذه الأسلحة يقطع الخوجة ثمنه من راتبه، وكان يعطى للانكشاري رطلاً من الخردق ، وكان عليه أن يشتري البارود بنفسه (٣٧).

٥- المراتب العسكرية:

تبدأ المراتب العادية من مرتبة الجندي العادي الذي كان يلقب باليولداش أو الرفيق، ثم يرفع إلى أسكي يولداش (رفيق قديم) وذلك بعد قضائه سنوات عديدة في الخدمة العسكرية (٣٨). ويتدرج هؤلاء أيضاً في المراتب العسكرية في حال أثبتوا الشجاعة والانضباط والسيرة الحسنة . وتقسم الخدمة العسكرية لدى أفراد الانكشارية إلى ثلاث مراحل :

١- الجنود الأغرار : ويكلفون بالتدريب على القتال وفنون الحرب في المواقع العسكرية التي جرى تعيينهم فيها.

٢- الجنود المدربون، ويقسمون إلى قسمين: أحدهما فعال، والثاني مقاتل.

٣- الأفراد القدامى والمتقاعدون ويستخدمون في الخدمات الثابتة (٣٩).

يتدرج الجندي من مرتبة يولداش، وذلك حسب جدارته وانضباطه، حتى مرتبة آغا ذو القمرين (أي بمعنى احتفاظه بمنصبه لمدة شهرين قمرين فقط)، بعدها يتنازل عن منصبه ليصبح آغا شرفي أو معزول آغا، ويقود فرقة من السباهية (الخيالة) (٤٠). وكان الآغا يقبض مرتباً مهماً ويتمتع

بالاحترام العام، إذاً كانت الرتب العسكرية تعطى حسب الأقدمية والجدارة، وعلى هذا المنوال كانت الطريقة المعتادة للتدرج في المراتب العسكرية للأوجاق (٤١)، لكنها لم تكن النموذج الأمثل والوحيد، لأنه حسب دراسات المختصين وجدت بعض حالات شراء المناصب، مثل شراء جندي شاب لمنصب جندي أقدم منه (٤٢)، فإذا كانت عملية الغش موجودة في الرتب الدنيا للتشكيلات العسكرية، فكيف هو الحال بالنسبة للمراتب العليا الأكثر أهمية وشرفاً ورفعة؟ كان أغلب عناصر الجند في الجزائر يمضون خدمتهم العسكرية في الجزائر، وبشكل خاص عناصر الجيش البري (٤٣)، ولا يعرف العمر الذي يبدأ فيه الجندي خدمته العسكرية (٤٤)، ولا المدة التي يقضيها تحت الراية العثمانية.

وفيما يلي عرض للمراتب العسكرية التي كان يمر بها الجندي التركي في إيالة الجزائر:

أ- اليولداش:

يسمى العسكري البسيط (الغري) يولداش، وتعني في اللغة العثمانية رفيق، ويشكل هؤلاء الغالبية العظمى من أفراد الجيش العثماني (الأوجاق) في إيالة الجزائر، فعلى سبيل المثال، أجرى تال شوفال (Tal. Shuval) عملية إحصائية لأفراد هذه المرتبة العسكرية، على ٣٣٠ عسكري من الجيش فوجد أن ٢٦٤ منهم من مرتبة يولداش، وذلك في عامي ١٦٩٩ و١٧٠١م، أي بنسبة تقدر بحوالي ٨٠%، وفي السنوات، وبقيت هذه النسبة كما هي تقريباً بين عامي ١٧٨٦-١٨٠٣م، حيث وجد ٦٣١ من اليولداش بين ٧٩٦ عنصر عسكري (٤٥).

إن وجود هذا العدد الكبير من البولداش بين عناصر الجيش يؤكد لنا الحقائق التالية :

١- ضعف الجيش العثماني في الجزائر، إما بسبب الحروب التي خاضتها الإيالة مع القوى الأوروبية، أو بسبب الصراعات الداخلية بين فئات الجيش، أو التمردات والثورات المحلية الشعبية رداً على الإجراءات والأوامر التي كانت تتخذها الحكومة العثمانية، وخاصة السياسة الضرائبية الجائرة بحق الرعية.

٢- طلب إيالة الجزائر من استانبول تزويدها بالعناصر العسكرية، حيث كانت هذه العناصر لا تعرف شيئاً في أمور القتال والحرب، لذلك كان عليها أن تقضي فترة في التدريب على السلاح وفنون القتال الفردي.

٣- مزاولة الضباط القدامى لمهنتهم في أيام السلم وتوقيع المعاهدات مع الدول المعادية، مما يؤدي إلى تناقص عدد أفراد القوى العسكرية.

ب- وكيل الخرج:

وهو المرتبة الثانية في السلم العسكري، حسب ما ورد في ملاحظات الرحالة، وتعادل متعهد التموين أو منظم الأرزاق التي تعطى للعساكر، ويتم اختيار وكيل الخرج من بين أقدم عناصر الخيمة العسكرية (٤٦). وكان صاحب هذه المرتبة يكلف بشراء أدوات المطبخ على نفقته الخاصة، ثم يعوض له فيما بعد من خزينة الجيش، وكان يكلف بالمهمتين التاليين: الأولى عسكرية أي قيادة الخيمة. والثانية إدارية أي شراء احتياجات عناصر خيمته وتزودها بالمؤن اللازمة (٤٧). ووفق إحصائيات شوفال (Shuval) في دفاتر الجند نجد ٣% من العسكر من الذين يحملون هذه المرتبة بين عامي ١٦٩٩ و ١٧٠١م.

وارتفعت هذه النسبة لتصل إلى ٥% بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م، وكانوا يتقاضون مرتبات أعلى بمرتين من البولداش (٤٨).

ج- الأوضى باشي:

كان صاحب هذه المرتبة مسؤول عن أورطة عسكرية (غرفة)، وتعاذل في التسميات الحديثة كلمة (شيف أو رئيس) (٤٩)، كان الأوضى باشي مسؤولاً عن قيادة وحدة عسكرية مؤلفة من ٢٠ جندي، بلغ عدد حاملي هذه المرتبة ٨٢٨ شخصاً في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وفق تقديرات بيتي دو لا كروا (Pétit de la Croix)، لكن هذه الإحصائيات لأفراد هذه المرتبة كانت متداخلة مع أصحاب مرتبة البلوكباشي (٥٠).

في الحقيقة، إن هناك اختلاف بين الرحالة حول عدد أفراد هذه المرتبة العسكرية فدراسة شوفال (Shuval) تبين أن عدد حاملي هذه المرتبة بلغ ١٢ عنصراً، وذلك في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلاديين، في حين أرتفع هذا العدد إلى ٣٠ عنصراً في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين، فالنسبة بين وكلاء الخرج والأوضى باشي متقاربة (٥١).

د- البلوكباشي:

إن مرتبة البلوكباشي تعادل قائد سرية، وكان أصحاب هذه المرتبة - بحسب التشريفات العثمانية - يشكلون هيئة منفصلة عن الأوجاق، وكانوا يشكلون قواد النوبات أو الطوابير مع حمل لقب آغا، وعندما كانت تنتهي مهمتهم يعودون إلى مرتبة البلوكباشي (٥٢). وأحصى توماس شاو (T.Shaw) عدد حاملي

هذا اللقب ب ٨٠٠ عنصر أي ضعف مرتبة الأوضى باشي (٥٣) لكن وحسب إحصائيات شوفال (Shuval) فإن عدد أفراد هذه الفئة:

بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م كان ٢٨ عنصراً يحمل لقب بلوكباشي مقابل ٦٤٠ عنصراً بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م، ويشكلون بذلك حوالي ٨% من مجموع مراتب الجيش العثماني في الجزائر في تلك الفترة (٥٤).

هـ - يايا باشي:

يوجد اختلاف بين الرحالة والذين درسوا دفاتر الانكشارية في الجزائر حول تسمية هذه المرتبة، إذ لم يجد هؤلاء هذه التسمية بالتحديد، وسمى لوجيه دى تاسي (Laugier de Tassy) أصحاب هذه المرتبة بأغا باشي، أي بمعنى قائد لدى غرامون (Grammont) (٥٥)، في حين سماها فانثور دى بارادي (Venture de Paradis) وببيسونيل (Peyssonnel) مرتبة يايا باشي، وكان صاحب هذه المرتبة مسؤولاً عن قيادة محلة، ويسمى آغا، والأقدم من أصحاب هذه المرتبة يصبحون كاخية (٥٦). وحسب إحصائيات شوفال (Shuval) يوجد ٣ عناصر من أفراد الجيش يحملون هذا اللقب بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م، وأربعة بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م (٥٧)، مما يؤكد أهمية حامل هذه المرتبة ودوره الفاعل في قيادة لواء عسكري بحسب التصنيفات الحديثة للجيش.

و - الآغا:

يأتي الآغا في قمة التسلسل العسكري العثماني في الجزائر، فحامل هذا اللقب يوصف بأنه قائد الجيش و حامي العدالة (٥٨)، وقد وصل الأغوات إلى رأس السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر بين عامي ١٦٥٩ - ١٦٧١م، ولم يكن

هذا المنصب شرفياً من أجل مكافأة الشخص الذي يتقلده، فقد وجد الأغوات مشكلات كثيرة في فترة حكمهم وخاصة في صراعهم مع أفراد طائفة الرياس التي كانت تنافسهم للسيطرة على الحكم في مدينة الجزائر.

كان الأغا يدير الحكم خلال فترة شهرين فقط، ويتقاضى ٢٠٠٠ باتاك، والأغا القديم يحمل لقب معزول آغا كما ذكرنا سابقاً. وبلغ عدد الأغوات بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م نحو ١٤ آغا من المجموع العام للجيش، في حين أرتفع هذا العدد إلى ٢٥ آغا بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م (٥٩).

ز - الأهجي:

بالإضافة إلى المراتب الستة التي ذكرناها، تأتي مرتبة الأهجي التي تحتل مكانة هامة في التسلسل العسكري لإيالة الجزائر. وتبدو هذه المرتبة للوهلة الأولى خارج نطاق الجيش، إلا أنها ذات طابع موازي للقوات المسلحة بحكم عملها واستفادتها من الظروف والشروط الخاصة بهذه العناصر المسلحة. فكلمة أهجي في اللغة العربية تعني الطباخ، ويجب أن يكون جميع عناصر هذه الفئة من الأتراك أو القولوجية حصراً (٦٠)، فأصحاب هذه المرتبة كانوا مرتبطين بالجيش العثماني الجزائري، ويخدمون في المخيمات العسكرية والحاميات كما هو حال اليولدش، ويتمتعون بمكانة خاصة لدى الأوساط الحاكمة العسكرية والإدارية (٦١). يبدأ الأهجي خدمته في الخيمة بمرتبة آس شي، ويصل بعد ذلك إلى مرتبة آس شي باشي بالمخيم أو الحامية، ويصلون بعد ذلك إلى مرتبة باس آشي باشي (٦٢)، وقد وصل عدد من أفراد هذه المرتبة إلى حكم إيالة الجزائر بمرتبة داي، حيث كانوا يمارسون في حياتهم العملية مهنة الطباخة عندما تم انتخابهم لمنصب الداي، كما هو حال حاجي مصطفى الذي تم انتخابه عام ١٧٠٠م (٦٣).

بلغ عدد الأفراد حاملي هذه الرتبة بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م نحو ٩ أفراد، في حين وصل هذا العدد إلى ٩١ بين عامي ١٧٨٦ - ١٨٠٣م (٦٤).

كان أصحاب هذا اللقب من ميسوري الحال، وسمحت لهم ثروتهم بالعيش الكريم برفاهية، وذلك مقارنة مع الفئات الأخرى لعناصر الجيش العثماني العامل في إيالة الجزائر.

ح - الخوجة:

تعني كلمة خوجه هنا كاتب، وقد شكل أصحاب هذا اللقب هيئة مميزة في تركيبة الأوجاق في إيالة الجزائر، وقد أحصى لوجيه دى تاسي Laugier de (Tassy) عدد هؤلاء الكتاب ب ٨٠ كاتباً، وانخفض عدد حاملي هذا اللقب بشكل ملحوظ نظراً لظروف الدولة العثمانية وإيالتها الجزائرية (٦٥). وكان أصحاب هذا اللقب يختارون حصراً من قبل الأتراك القادمين من الشرق، بحيث لم يقبل أحد غيرهم وخاصة القولوغلية أو الأسرى الأوربيين الداخلين حديثاً في الإسلام (٦٦)، وهناك من يقول إن خيرة الكتاب كان يتم اختيارهم من طبقة القولوغلية المتعلمين (٦٧). ونجد عدد من هؤلاء الكتاب في تشكيلات الجيش البحري، يجب على اليولداش الذين أصبحوا كتاب أن يمضوا جزءاً من تدريبهم في الوحدات العسكرية المقاتلة، وخلال المعارك فضل عدد كبير منهم أن يبقى مقاتلاً وبشكل خاص من يخدم بالبحرية (٦٨)، ويخضع هؤلاء الخواجات بعد انتهاء فترة تدريبهم لامتحان قبل التحاقهم بمكانهم في الجيش، وكل ترقية لهؤلاء تتوقف على الامتحان الذي يمرون به (٦٩). وبحسب إحصائيات شوفال (Shuval) بلغ عدد حاملي هذه المرتبة بين عامي ١٦٩٩ - ١٧٠١م أربعة عشر كاتباً، في حين وصل هذا العدد إلى ٤٣ كاتباً (٧٠).

٦- المهام الموكلة إلى الجيش:

إن مهمة الجيش في جميع العصور والدول، هي الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن فيها، لكن الجيش العثماني في الجزائر كان له مهمات أخرى مثل جمع الضرائب وإقامة الحاميات في المدن، وكانت نتائج هذه المهام سلبية على المدى البعيد، فقد أثارت سخط العامة من الشعب جراء تصرفات عناصر السلطة الحاكمة.

نوجز المهام التي كانت موكلة للجيش في النقاط التالية :

١- المحلات:

كانت المهمة الأولى للجيش جباية الضرائب، ففي كل سنة كانت تتطلق محلات مكونة من طوابير عسكرية مهمتها جمع الضرائب من بليكيات الإيالة الجزائرية (٧١) . يبدأ موعد خروج المحلات في شهر نيسان من كل عام، وتستمر لمدة أربعة شهور بالنسبة إلى الأقسام الغربية والجنوبية من الإيالة، وستة شهور بالنسبة للقسم الشرقي . وكان الدور الذي تلعبه المحلات مهماً جداً، لكنه تعرض للتغير في أواخر القرن الثامن عشر (٧٢) . لم تقتصر مهمة المعسكر المتنقل على جمع الضرائب، بل ومعاينة القبائل المتمردة، وإعلان الحرب ضد مناطق الجوار، وخاصة المغرب وتونس.

٢- مهمة الجيش في الحاميات:

تتركز هذه المهمة على تأمين الأمن على الحدود وداخل البلاد. كان الجيش يشغل عدداً من الحاميات في المدن المختلفة والقلاع الرئيسية في البلاد (٧٣) . وينحصر دور هذه الحاميات بالدرجة الأولى في حماية المدن والمناطق المحيطة بها والواقعة تحت سلطة الإدارة العثمانية، فالخدمة داخل الحاميات

إجبارية، ولا يستثنى منها أي شخص مهما كانت صفته الاعتبارية. وحددت الخدمة العسكرية داخل الحاميات والمواقع بسنة واحدة (٧٤). يعدّ تغيير المواقع العسكرية للمدن الساحلية جزء من العمل البحري وفقاً للإستراتيجية البحرية الجزائرية. بلغ عدد الحاميات العثمانية الجزائرية، في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، ٢٠ حامية، يخدم فيها حوالي ١٠٠٠ جندي، واستمر هذا العدد تقريباً حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وقد تعرض عدد كبير من الانكشافية إلى الموت في الحاميات، فحسب إحصائيات شوفال (Shuval) توفي حوالي ١١ من عناصر الحاميات وذلك بين عامي ١٦٩٩- ١٧٠١م، و ٢٠ عنصر بين عامي ١٧٨٦- ١٨٠٣م (٧٥). فالميزة الوحيدة للذين يخدمون في الحاميات والمواقع العسكرية هي أنهم يحصلون على الغنى بسرعة مقارنة مع زملائهم الذين يخدمون في مدينة الجزائر (٧٦).

من دراسة الجيش البري العثماني في إيالة الجزائر، وحسب مراتبه المختلفة وعمليات تجنيده، والمهام الموكلة إليه، يمكن وضع النتائج التالية:

١- إن سلوك الأوجاق السيء وما رافقه من عمليات تعدي على الرعية جعل السكان ينفرون منهم، فمن جهة، كانوا يحصلون على المواد الغذائية والحاجيات الضرورية بأسعار مخفضة بالنسبة إلى باقي فئات المجتمع الجزائري وأحياناً بصورة مجانية، ومن جهة ثانية أشاعوا الفساد والفضى في تعاملهم مع الأهالي، الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى التمرد وشق عصا الطاعة ضد السلطة العثمانية.

٢- شكل الأوجاق ارسنقراطية عسكرية وإدارية معفية من الضرائب والالتزامات الأخرى التي كانت مفروضة على السكان المحليين.

٣- لم يقتصر دور القوة العسكرية، في كل أنحاء السلطنة عامة وفي الجزائر خاصة، على المحافظة على الأمن ورد كيد العدوان الخارجي، بل أخذت تتدخل بصورة مكشوفة في سياسة وإدارة البلاد، وفي حياة السكان الخاصة.

٤- إن حرمان أبناء الأتراك من أمهات جزائريات (قولوغلي) من الوصول إلى المناصب الإدارية والعسكرية العالية، يشكل دليلاً واضحاً على العنصرية التي تتبناها هذه السلطة حتى تجاه أبنائها.

٥- يؤكد سماح السلطة لعناصر الجيش بممارسة المهن المختلفة التي يعرفونها على انحلال هذا الجيش منذ البداية، وكان دخول العناصر التركية إلى سلك الجندية ومجيئهم بالأساس إلى الجزائر بدافع الغنى والمجد، وليس بهدف الدفاع عن الجزائر ضد الغزو الأجنبي.

٦- إن الفوضى المرتكبة من قبل عناصر الجيش البري خاصة، تتأكد في تنبه خير الدين برباروس منذ البداية إلى خطر هذه العناصر على الوجود العثماني من ناحية، وأثر ذلك على الحياة الداخلية للسكان المحليين من ناحية ثانية، لذلك قام بتأسيس قوة من الحرس وجيشاً يتألف من ثمانية آلاف جندي، ووزع قياداتها على رفاقه. فإذا كانت السلطة العثمانية في الجزائر تخاف على نفسها من فوضى وتمرد عساكرها، فماذا يستطيع أن يفعل السكان المحليون تجاه ذلك؟ إن هذا وحده يكفي لوصف حالة الخضوع من قبل السكان، وعدم قدرتهم على فعل شيء تجاه السيطرة العسكرية على جميع نواحي الحياة في الإيالة.

٧- نستطيع أن نعطي دليلاً آخر على فوضى الجيش وخطره، يتمثل ذلك بقيام الداي علي خوجة بالتخلص من الفرق الغير انضباطية من القوة

العسكرية، حيث غادر قصر الجينية واستقر بالقصبة، وعمل على تجنيد عدد كبير من أفراد القبائل للوقوف في وجه فرق الانكشارية .

٨- يعطينا قيام السلطان العثماني محمود الثاني بتصفية الانكشارية دليل آخر على فوزى الجيش العثماني في جميع أنحاء الإمبراطورية عامة وإيالة الجزائر بشكل خاص .

٩- إن الارستقراطية الإدارية العسكرية التي أقامها العثمانيون في جميع أنحاء السلطنة، تعطينا من جهة دليلا على العنصرية التركية تجاه رعاياها، وعلى بث الفتنة بينهم من جهة أخرى، وذلك عن طريق تقريب فئة على حساب فئة أخرى، وطائفة على حساب طائفة، وإعطائها امتيازات أرضية وإعفاءها من الضرائب، فكثير من العساكر كانوا يملكون أراضي واسعة في ضواحي المدن الكبيرة .

١٠- انعكس الصراع بين الانكشارية (الجيش البري) وبين طائفة الرياس (الجيش البحري) على الأحوال الداخلية في إيالة وتركها فريسة سهلة للوقوع بيد الاستعمار الفرنسي في عام ١٨٣٠ م .

ثانياً - طائفة الرياس (الجيش البحري)

١- البحرية الجزائرية ونشأتها:

أدخل رجال هذه الطائفة الجزائر إلى تبعية الدولة العثمانية، ولعبوا دوراً مهماً في إلحاق تونس وطرابلس بالسلطنة . ويعود النشاط البحري الجزائري إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي تعرض لها المغرب العربي عامة، والجزائر خاصة، وإلى تدفق المهاجرين الأندلسيين عليه (٧٧) . فالنشاط البحري الجزائري (القرصنة) ومهاجمة

السواحل الأوربية يعودان إلى عام ١٣٦٠م، وذلك حين بدأت السفن الحربية في بجاية ودلس تهاجم الجزر والسفن الأوربية في عرض البحر، وتعود محملة بالأسرى والغنائم (٧٨). تزامن إخراج العرب المسلمين من إسبانية عام ١٤٩٢م، والحملات العسكرية الإسبانية ضد المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، مع وصول البحارة العثمانيين إلى سواحل المغرب العربي بزعماء عروج وخير الدين بربروس، فبعد احتلال الإسبان لعدد من المدن الساحلية الجزائرية، طلب الأهالي نجدة الأخوين عروج وخير الدين المقيمين في تونس، وهنا تحول الصراع من صراع محلي إلى صراع دولي بين الدولة العثمانية وإسبانية، ولأسيما بعد إعلان خير الدين تبعيته للسلطنة العثمانية عام ١٥١٨م. وبما أن الدولة العثمانية دولة برية وليس لها خبرة في القضايا البحرية لذلك كان على الجزائر أن تعتمد على نفسها في تصنيع السفن. ويبدو ذلك جليا من خلال الورشات الصناعية التي أقامتها في المدن الساحلية، واتخاذها ميناءً آمناً لحماية السفن عندما استطاع خير الدين تدمير البنيون (الصخرة) التي أقامها الإسبان في مواجهة مدينة الجزائر عام ١٥٢٩م، ومنذ ذلك التاريخ بدأ ما يسمى أوجاق الجزائر (٧٩).

تغير مفهوم النشاط البحري الجزائري من جهاد وحماية المسلمين ونقلهم إلى السواحل الأفريقية الذي كان سائداً في القرن السادس عشر، إلى مفهوم جديد عرف باسم (القرصنة)، حيث كانت السفن الجزائرية تهاجم الدول الأوربية وسواحلها وسفنها بقصد الغنى والشهرة والثروة، لذلك نرى أن أغلب الأوربيين أطلق على الجزائر ألقاباً مختلفة مثل: عش (القرصنة) ووكر اللصوص (٨٠). وماوى اللصوص... وكهوف الوحوش الأفارقة... وإن سكان هذه المناطق هم شياطين (٨١). بعد عام ١٥١٨م. نستنتج من هذه

الألقاب الحاقدة مدى أهمية الدور الذي كانت تلعبه البحرية الجزائرية في البحر المتوسط، وتهديدها المباشر لجميع الدول الأوروبية الواقعة عليه .

اهتمت الجزائر بالبحر، ولعبت دوراً مهماً في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتركزت جهودها ضد السواحل الأوروبية بصورة عامة، وإسبانية وسواحلها وسفنها بصورة خاصة . وبلغت البحرية الجزائرية (القرصنة) ذروتها في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي الذي عد بحق العصر الذهبي (للقراصنة) البحرية (٨٢)، ولم تستطع الوسائل التي استخدمتها الدول الأوروبية، وبخاصة إسبانية، صد هجمات البحارة الجزائريين، إن هذا يعطينا دليلاً واضحاً عن تطور السفن الجزائرية وسرعة حركتها والمهارة التي اتصف بها بحارتها . وقد أدت الهجمات المتكررة للبحرية الجزائرية ضد السواحل والسفن الأوروبية إلى النتائج التالية:

١- حقق البحارة الجزائريون غناً فاحشاً بالإضافة إلى العتاد الذي استولوا عليه، والعدد الكبير من الأسرى الذين تم أسرهم من الشواطئ الأوروبية.

٢- تخلى سكان المدن الساحلية الأوروبية عن بيوتهم وهاجروا إلى المناطق الداخلية في دولهم، الأمر الذي سبب لهم مضايقات اقتصادية وأدى إلى كارثة ديمغرافية، وإلى إفقار هذه السواحل.

٣- دفعت هذه الهجمات البحرية الجزائرية حكام الدول الأوروبية المتوسطة إلى الإسراع بتوقيع معاهدات مع السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر .

يصف هايدو، الذي كان أسيراً في الجزائر، نشاط البحارة الجزائريين (القراصنة) بقوله: "كان (القراصنة) يبحرون في الشتاء والربيع، ويجوبون في البحر شرقاً وغرباً، ساخرين من سفننا، في حين كان قراصنتنا منهمكين في اللهو، وكان (القراصنة) الجزائريين يهاجمون السفن الثقيلة وينهبون ما

فيها من عتاد، لعدم قدرتها على الفرار أمام السفن الجزائرية الخفيفة^{١٠٠} (٨٣). فإذا كان القرن السابع عشر الميلادي هو بحق العصر الذهبي لنشاط البحرية الجزائرية، فإن القرن الثامن عشر الميلادي يعد عصر انحطاطها وضعفها.

٢- عدد السفن وأنواعها:

هناك اختلاف بين الرحالة والمؤرخين فيما يتعلق بعدد السفن الحربية التي كانت تملكها إيالة الجزائر العثمانية، فالدكتور شاو (Shaw) يقول: "بلغ عدد السفن الجزائرية عشرين عمارة (سفينة) بحرية، ووصل عام ١٧٢٤م إلى أربع وعشرين عمارة، وسلحت اثنتان منهما بين عشرين واثنتان وخمسين مدفعاً، وست فرقاطات مزودة ما بين ٣٨ إلى ٤٤ مدفعاً (٨٤). وقدم عبد القادر الجليلي رقماً أكبر بكثير من الذي قدمه شاو (Shaw) إذ يقول: "..... امتلاك الأسطول الجزائري في ذروة مجده، في القرن السابع عشر الميلادي، ٢١٢ سفينة، وربما وصلت إلى ٦٠٠ سفينة، في حين بلغ عدد أفراد الجيش البحري في بعض الأحيان ٣٠ ألفاً، وكان يتراوح عدد البحارة والنوتيين على كل مركب بين الثلاثين والمائة رجل، وبلغ عدد (القراصنة) الفعليين ستة آلاف، وهم خليط من عرب وترك وبربر ومن أسلم من الأوربيين^{١٠١} (٨٥).

نرى أن الرقم الذي قدمه الجليلي مبالغ فيه، لأن هناك رحالة آخرون قدموا أرقام قريبة من العدد الذي قدمه الدكتور شاو (Shaw) في الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، مقارنة بالعدد الذي أشار إليه الجليلي، فالرحالة الفرنسي Boyer قال ".... بلغ عدد سفن القوة البحرية الجزائرية في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وبالتحديد عام ١٨١٢م خمس

فرقاطات، تحمل من ٣٨ إلى ٥٠ مدفعاً (٨٦) . وبلغ عدد الرياس عام ١٦٢٠م ثلاثمائة ريس، وكان لديهم ثلاثة أنواع من المراكب هي :

١- الشبك: وهو عبارة عن مركب مؤلف من ثلاث صواري وثلاثين مجدفاً، وحمولته مائتا طن، وعدد مدافعه مابين ٤ إلى ٢٤ مدفعاً، وبحارته من ٣٠ إلى ٢٠٠ نوتي .

٢- الغليطة: وهي عبارة عن مركب يحمل مابين ٢٠ إلى ٣٠ نوتياً ويصل عدد مدافعه إلى العشرين .

١- اللتسون: هو مركب مخالف لجميع المراكب في شكله و سرعته .

بالإضافة إلى هذه الأنواع الثلاثة هناك عدد كبير من الزوارق والقوارب التي تلتحق بالأسطول الجزائري .

٣- طاقم السفينة وتوزيع الغنائم :

كان طاقم السفينة العثمانية في الجزائر يتألف من العناصر التالية : باش ريس، رئيس أعلى، صوطو ريس، نائب صوطو ريس، رئيس العسة، الوردان، باش طبجي، ضابط المدفعية، باش دومانجي، كاتب خزناجي المركب، المسؤول عن خزينة البارود، رئيس فرقة الانكشارية، طبيب جراح والآغا (٨٧) .

كان الوردان يأتي في أسفل السلم الاجتماعي لطاقم السفينة (٨٨) . فهو المسؤول عن حراستها، ويخبر قائدها في حال تعرضت لأي خطر في أثناء قيامها بمهمتها .

وكان اقتسام غنائم الهجمات البحرية الجزائرية ضد السواحل والسفن الأوربية يتم على النحو التالي :

١- الخمس لبيت المال وفق الشريعة الإسلامية .

٢- نصف الغنائم لصاحب السفينة المنتصرة.

٣- النصف الثاني يقسم مائة سهم ويوزع وفق مايلي : ٤٠ سهماً للقبطان (قائد السفينة)، ٣٠ سهماً للآغا، ١٠ أسهم توزع على الضباط، والباقي على البحارة والبولداشية (٨٩) .

ولم تقتصر البحرية الجزائرية على الأتراك والجزائريين فحسب، بل كان يدخل فيها خليط من أقوام وجنسيات مختلفة شريطة اعتناقهم الإسلام، فنجد في تاريخ هذه البحرية عدداً من رياس السفن كانوا من الأسرى الأوربيين دخلوا في الإسلام، ولعبوا دوراً مهماً في التاريخ الجزائري عامة، وتاريخ النشاط البحري للإيالة ضد السواحل الأوروبية بشكل خاص، منهم العلاج علي الذي أصبح قائداً للأسطول العثماني في عاصمة السلطنة، نظراً لشجاعته وخبرته في الأمور الحربية البحرية.

٤- بعض إنجازات البحرية الجزائرية :

١- استطاع الأسطول الجزائري أن يهزم حملة شارلكان الذي كان يمتلك أكبر أسطول حربي في تلك الفترة عام ١٥٤١ م .

٢- شارك الأسطول الجزائري إلى جانب الدولة العثمانية في معركة ليبانتو في الحوض الشرقي للبحر المتوسط عام ١٥٧١م، وذلك بعمارة بحرية قوامها ستون سفينة.

٣- شارك الأسطول الجزائري تدعمه قوات برية في القضاء على الوجود الإسباني في تونس عام ١٥٧٣م (٩٠) .

- ٤- شارك الأسطول الجزائري إلى جانب الأسطول العثماني في فرض حصار على مالطة عام ١٥٩٥م، وذلك بعشرين سفينة حربية
- ٥- شارك الإسطول الجزائري إلى جانب الدولة العثمانية في حرب اليونان عام ١٨٢٧م .

وعلى الرغم من ضعف البحرية الجزائرية في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وخاصة في ثلثه الأول، إلا أنها كانت تمتلك حوالي ١٦ قطعة بحرية مزودة بـ ٣٩٨ مدفعاً، وذلك أثناء توتر علاقاتها مع فرنسا (٩١) .

إذا بقيت البحرية الجزائرية مرهوبة الجانب خلال ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية على الجزائر، ورغم تعرضها للهجوم من قبل الدول الأوربية والخصائر التي كانت تلحق بها، كانت قادرة وبسرعة مذهلة على إعادة بناء نفسها، ومهاجمة السواحل الأوربية بقوة أكثر مما كانت عليه من قبل . وظلت البحرية الجزائرية القوة المسيطرة على البحر المتوسط حتى عام ١٨١٥م، وذلك بفضل الرئيس حميدو الذي أعاد النشاط والقوة للبحرية الجزائرية، حيث وصل عدد قواتها في عام ١٨١٥م إلى حوالي ٣٠ ألف رجل (٩٢) .

يرجع نشاط البحرية الجزائرية إلى تطور صناعة السفن، التي كان لها دوراً قرب ميناء الجزائر، حيث توجد الأخشاب والمعادن الضرورية لصناعة السفن، ففي باب الوادي كان يوجد مصنع لصناعة البوارج الضخمة، وكان هناك مصنع آخر في باب عزون لصناعة السفن والزوارق الصغيرة (٩٣) .

يعود ضعف البحرية الجزائرية إلى الظروف الدولية والحروب النابليونية، فخروج فرنسا خاسرة عام ١٨١٤م، وفرض معاهدة فيينا عليها عام ١٨١٥م، وانعقاد المؤتمر الدولي الخاص بهدف القضاء على البحرية الجزائرية في إكس لاشابيل عام ١٨١٨م . كلها عوامل ساهمت في ضعف البحرية والإيالة

الجزائرية، وقد تزامن هذا مع ضعف السلطنة العثمانية بصورة عامة . واستغلت فرنسا الظروف الدولية وحجج ابتدعتها: كقضية السديون الجزائرية عليها وحادثة المروحة اليدوية (كشاشة الذباب)، لمهاجمة الجزائر والتعويض عن مستعمراتها التي خسرتها، حيث أغارت على السواحل الجزائرية عام ١٨٣٠م وقضت على البحرية والانكشارية لا بل على إيالة الجزائر، وبدأت حقبة جديدة في صراعها مع الاستعمار .

٦- نتائج النشاط البحري الجزائري:

١- بثت الهجمات البحرية الجزائرية الرعب والخوف على السواحل الأوروبية المتوسطية، مما دفع حكام هذه الدول إلى الإسراع لتوقيع المعاهدات مع الجزائر، والاعتراف بسيادتها البحرية .

٢- استفادت الجزائر من خبرات الأسرى الأوروبيين في التجديف، واستخدمتهم كإدلاء ساعدوهم في إظهار مواطن الضعف على السواحل الأوروبية التي أسروا منها، الأمر الذي سهل على البحرية الجزائرية عملية الهجوم والانتصار السريع على العدو .

٣- ساعدت الغنائم الهائلة التي حصلت عليها إيالة الجزائر من هذه الهجمات في دعم أسطولها الحربي، وفي ثراء الضباط الكبار العاملين في السلك البحري .

٤- لم تطل العائدات الاقتصادية الناجمة عن الحملات البحرية الجزائرية الطبقات الدنيا من السلم الاجتماعي، وإنما تم تقسيمها بين الطبقات العليا الحاكمة، وبشكل خاص الرياس، الأمر الذي عمق الصراع بينهم وبين الانكشارية من جهة وبين الرعية من جهة ثانية .

٥- تحولت البحرية الجزائرية عن هدفها السامي في الجهاد إلى عملية (قرصنة) ضد السواحل الأوربية وسفنها، وذلك بقصد الغنى والشهرة، والدليل على ذلك مساهمة كل من لديه المقدرة على هذا العمل، حتى النساء قمن ببيع الحلي من أجل شراء السفن واستخدامها في (القرصنة) بهدف الربح.

٦- إن تحول مفهوم الجهاد إلى (قرصنة) نبّه الدول الأوربية المتضررة من تزايد الهجمات الجزائرية على سواحلها، الأمر الذي دفعها إلى الاتحاد فيما بينها لتشكل قوة واحدة، مما مكنها من مهاجمة السواحل الجزائرية مع كل فرصة سانحة.

٧- استغلت الدول الأوربية ضعف البحرية الجزائرية فعقدت فيما بينها معاهدة إكس لاشابل في عام ١٨١٨م بهدف القضاء على (القرصنة) الجزائرية.

٨- سقطت الجزائر ضحية الصراع بين طائفتي الرياس والانكشارية الغرباء بالأساس عن البلاد، والمهتمين فقط بمصالحهم الخاصة، وكذلك ضحية التآمر الفرنسي المتعاون مع اليهود، لتبدأ هذه الإيالة تاريخاً ونضالاً جديدين تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية .

خاتمة:

قدمت الدراسة أهمية الجيش العثماني بقسميه البري والبحري، والدور الذي لعبه في تثبيت أقدام السلطنة العثمانية في الجزائر، كما ألفت الضوء على عمليات تجنيد عناصر الجيش في الأناضول، خاصة في القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين، وإرسالهم إلى إيالة الجزائر .

وعرضنا في البحث مواقع تكتلات الجيش العثماني في الجزائر وأماكن تمركزها داخل المدينة، كما أشارت الدراسة إلى الدور الهام الذي كان يقوم به الجيش داخل إيالة الجزائر المتمثل في حماية السلطة الحاكمة وقمع الثورات والانتفاضات، وإرسال الحملات - التي كانت تعرف باسم المحلات - للقيام بجمع الضرائب من السكان القاطنين في المناطق الخارجة عن سلطة الدولة .

أما فيما يتعلق بطائفة الرياس أو الجيش البحري، فقد بينت الدراسة الدور الهام الذي لعبته البحرية الجزائرية في فرض التفوق العثماني على الحوض الغربي للمتوسط، وتحويله إلى بحيرة عثمانية، ومهاجمة سفن الأسطول الجزائري لسواحل وسفن الدول الأوروبية، وإجبار حكامها للإسراع إلى عقد المعاهدات ودفع الأتاوات لحكومة الجزائر العثمانية، والحديث عن الخروقات التي كانت تحصل لهذه المعاهدات من الجانب الأوروبي في أغلب الأحيان، وعرضنا أسباب تطور البحرية الجزائرية ودور صناعة السفن، على الرغم من المهام التي قام بها الجيش العثماني في الجزائر إلا أنه كان له سلبيات تتمثل في تطور الصراع والتنافس بين الانكشارية وطائفة الرياس، الأمر الذي انعكس على الأوضاع العامة في البلاد، خاصة في أواخر العهد العثماني، حيث أصبح الجيش ضعيفاً، ومما عقد المسألة انتباه الدول الأوروبية لمدى خطورة الهجمات البحرية على سواحلها وسفنها في عرض البحر، الأمر الذي دفعها للإتحاد فيما بينها لمواجهة هذا الخطر، وتجلى ذلك في عقد الاتفاقيات، خاصة معاهدة إكس لاشايبيل عام ١٨١٨م الهادفة لوضع حد للنشاط البحري الجزائري في المتوسط، وتنازلت المؤامرات الاستعمارية الأوروبية للقضاء على الوجود العثماني في غرب المتوسط، وتمكنت فرنسا من القضاء على الوجود العثماني في الجزائر عام ١٨٣٠م بعد فترة حكم دامت أكثر من ثلاثة قرون .

الهوامش

- ١- محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث، بيروت ١٩٦٩، ص ٨١.
- 2- André Raymone : Les grands villes arabes à époque ottomane, Paris 1985, p. 68.
- 3- Tal Shuval : La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle, population et cadre urbain, thèse de doctorat, Aix- en Provence, France 1994, p. 93.
- 4- J.A. Peyssonnel : Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger, Paris 1987, p. 77.
- 5- N. Rozet : Voyage dans la régence d'Alger, Paris 1833, p. 374.
- 6- G. Delphin : Histoire des Pachas d'Alger 1515-1745, extrait d'une chronique indigène, traduit et annoté par J.A 1922, p. 205.
- 7- Peyssonnel : op. cit., p. 77.
- 8- Shuval : op. cit., p. 94-95.
- 9- Le docteur Shaw : Voyage dans la régence d'Alger, traduit de l'anglais par J. Mac, sans date, p. 182.
- 10- M. Colombe : " Contribution à l'étude du recrutement de l'odjag d'Alger, R.A, t 87, 1934, p. 172.
- 11- Shuval: op. cit., p. 96.
- 12- Pierre Boyer : " Les renégats et la marine de la régence d'Alger, R.O.M.M, 1985, 94.
- 13- Laugier de Tassy : Histoire de la royaume d'Alger, Paris 1992, p. 125-126.
- 14- Thomas Shaw : Travel or observation relation to several parts of barbary and the Levant, Oxford 1738, p. 313.
- 15- Colombe : op. cit., p. 178-179.
- 16- Pierre Dan : Histoire de la barbarie et de ses corsaires, Paris 1649, p. 107.
- 17- De Tassy : op. cit., p. 125-126

١٨- محمد خير فارس : المرجع نفسه، ص ٨٣

19- Colombe : op. cit., p. 180.

.20- Colombe : op. cit., p. 175

٢١- محمد خير فارس : المرجع نفسه، ص ٨٦.

.22- Le docteur Shaw : op. cit., p. 182

.23- De Tassy : op. cit., p. 125

.24- Boyer : op. cit., p. 127

.25- Le docteur Shaw : op. cit., p. 182

.26- Le docteur Shaw : op. cit., p. 183

٢٧- محمد خير فارس : المرجع نفسه، ص ٨٥.

٢٨- ناصر الدين سعيدوني : الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، الجزائر

بدون تاريخ، ص ٩٢.

.29- Boyer : op. cit., p. 133-134

٣٠- ناصر الدين سعيدوني : المرجع نفسه، ص ٩٢.

.31- Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIIIe siècle, Paris 1963, p. 165

.32- Le docteur Shaw : op. cit., p. 188

33- Venture de Paradis : op. cit., p. 165.

.34- Boyer : op. cit., p. 128

35- Le docteur Shaw : op. cit.; p. 189.

.36- Boyer : op. cit., p. 128

.36- Boyer : op. cit., p. 129

37- Thomas Shaw : op. cit., p. 313. voir également Venture de Paradis : op.

.cit.m p. 181

38- Thomas Shaw : op. cit., p. 313.

٣٩- محمود عامر : تاريخ المغرب الحديث (الجزائر- تونس)، منشورات

جامعة دمشق ١٩٩٤-١٩٩٥، ص ٩٥.

- ٤٠- محمود عامر : المرجع نفسه، ص ٩٦.
- 41- De Tassy : op. cit., p. 57. voir aussi Grammont : op. cit., p. 46.
- ٤٢- محمد خير فارس : المرجع نفسه، ص ٨٤.
- 43- J. Deny : " Les registres de solde de Janissaires conservés à la bibliothèque national d'Alger ", r.a 1920, p. 36
- 44- Shuval : op. cit., p. 106.
- 45- Shuval : op. cit., p. 109.
- 46- Venture de Paradis : op. cit., p. 172.
- 47- Venture de Paradis : op. cit., p. 168.
- 48- Shuval : op. cit., p. 116.
- 49- J. Deny : op. cit., p. 42.
- 50- Péris de la Croix : un mémoire sur Alger 1695, p. 17.
- 51- Shuval : op. cit., p. 111.
- 52- A. Devoulx : Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, p. 26.
- 53- Thomas Shaw : op. cit., p. 313.
- 54- Shuval : op. cit., p. 111.
- 55- De Tassy : op. cit., p. 138. voir aussi Grammont, p. 46.
- 56- Venture de Paradis : op. cit., p. 170-173. voir également Peyssonnel, p. 237.
- 57- Shuval : op. cit., p. 111.
- 58- Péris de la Croix : op. cit., p. 14-15.
- 59- Shuval : op. cit., p. 113.
- 60- Venture de Paradis : op. cit., p. 178.
- 61- Deny : op. cit., p. 45.
- 62- Venture de Paradis : op. cit., p. 178.
- 63- Pessonnel : op. cit., p. 237.

- 64- Shuval : op. cit., p. 116.
- 65- De Tassy : op. cit., p. 143.
- 66- Venture de Paradis : op. cit., p. 188.
- 67- Delphin : op. cit., p. 183-184.
- 68- Venture de Paradis : op. cit., p. 189-190.
- 69- Devoulx : op. cit., p. 21-22
- 70- Shuval : op. cit., p. 117
- 71- Devoulx : op. cit., p. 33
- 72- Shuval : op. cit., p. 118.
- 73- Devoulx : op.cit., p. 31-32 . voir aussi Venture de Paradis : p. 166. et Boyer : p. 165
- 74- Thomas Shaw : op. cit., p. 312. voir aussi Venture de Paradis : p. 166
- 75- Shuval :op. cit., p. 124
- 76- Boyer : op. cit. p. 146
- ٧٧- محمد خير فارس : المرجع نفسه، ص ٩٠
- 78- G. Marçais : " Les villes de la coté algérienne et la piraterie au moyen age ". A.I.E.O, 1955, p. 120.
- ٧٩- محمد خير فارس : المرجع نفسه، ص ٩٠
- 80- Renaudot : Tableau du royaume de la ville d'Alger et de ses environs Paris 1830, p. 22.
- 81- L. Abelly : La vie de saint Vincent de Paul, Paris 1891, p. 23
- 82- M. Fontenay et A. Tenenti : " course et piraterie méditerranéen de la fin du au début du XIXe siècle", dans commission international d'histoire maritime .course et piraterie, Paris 1975, p. 103
- 83- H. D. Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, Paris 1887, p. 51
- 84- Le docteur Shaw : op. cit., p. 196

٨٥- عبد القادر الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، بيروت

١٩٨٣، ص ٤٨٥

86- Boyer : op. cit., p. 235

٨٧- عبد القادر الجيلالي : المرجع نفسه، ص ٤٨٩

٨٨- محمود عامر : المرجع نفسه، ص ٩٨

89- Shuval : op. cit., p. 138

٩٠- جمال قنان : قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر،

الجزائر ١٩٩٤، ص ٣٣

٩١- جمال قنان : المرجع نفسه، ص ٣٧

٩٢- صلاح العقاد : المغرب العربي، القاهرة ١٩٦٨، ص ٥٠

٩٣- عبد القادر الجيلالي : المرجع نفسه، ص ٤٨٧